الإبستمولوجيا التكوينية عند جون بياجي

تأسست نظرية المعرفة كمبحث فلسفي للبحث في طبيعة المعرفة من الناحية الميتافيزيقية المجردة بوصفها علاقة بين الذات والموضوع دون إثارتها على المستوى الواقعي لإعتقاد بقدرة الفلسفة على إنتاج معرفة تتجاوز وتفوق المعرفة العلمية.

كان لجون بياجيه Jean Piaget في بداية حياته العلمية رغبة في التفلسف و الإطلاع على الرصيد الفلسفي عبر العصور والمذاهب إلا أنّ تكوينه العلمي كبيولوجي ثم كعالم نفس تجريبي يؤمن بالمنهج التجريبي لبناء المعارف جعله لا يستوعب كيف يمكن إنتاج معرفة يراد لها أن تتجاوز المعرفة العلمية بمجرد الإعتماد على التأمل المحض دون اللجوء إلى الواقع؟ وهذا مما دفع ببياجي إلى نقد نظرية المعرفة الفلسفية من ناحية الموضوع والمنهج بغرض الوصول إلى فصل موضوع المعرفة عن الفلسفة وتأسيسها كعلم سماه الإبستمولوجيا التكوينية L'épistémologie Génétique .

يرى بياجيه أن نظرية المعرفة تطرح جملة من الأسئلة غنية بالمضامين المعرفية وتختلف عن ما تخذه الفلسفة كموضوع عام لها معقد مثل أصل الكون ، الحياة ، النفس ....ولذى مما يجعل المواضيع الفلسفية متعددة التفسيرات والتأويلات حسب المذاهب الفلسفية إلا أن بياجي يرى أنّ كلّ معرفة لا بد أن تعتمد في منهجها على إحدى الطرق الثلاث :

أ- الحس أو البداهة.
ب - المعايشة الواقعية أو الخبرة أو التجربة.
ج - الإستنتـــاج.

أما الفلاسفة لا يأخذون سوى بالمنهج الأول أي الحس أو البداهة ، والمعروف أن المعرفة الحدسية ذاتية وشخصية ولا تلزم سوى صابحها.

يرى بياجي أن التأمل الفلسفي ضروري جدا لكل بحث لكنه لا يعد سوى وسيلة لطرح المشكلة وليس وسيلة لجل حلّها.

نالت بحوث بياجي شهرة علمية عالمية لا سيما المتعلقة بنشأة مفهوم العدد ، مفهوم المكان ، مفهوم الزمان ، والسببية... التي كانت نتيجة لتحقيقات تجريبية.

ولتوضيح رؤية جون بياجيه نتبع الخطوات التحليلية التالية:

أولا : إشكالية نمو المعارف.
ثانيا : مناهج الإبستولوجيا التكوينية.
ثالثا : مشكلة التوازي.

أولا : إشكالية النمو المعرفي عند بياجي :

يرى بياجيه في إقامة نظرية معرفية علمية وموضوعية يجب أولا تحديد موضوعها وضبطه بواسطة عملية منهجية والإكتفاء بسؤال وهو كيف تنمو المعارف ؟

فهذا السؤال يطرح مشكلة واضحة ومحددة هادفا البحث عن الكيفية أو الطريقة التي تنمو بها المعارف ويستغني أساسا عن طرح السؤال لماذا ؟

إن البحث في النمو المعرفي فمعناه أن المشكلة المعرفية لا يمكن أن تطرح في صورتها النهائية الثابتة والمكتملة لأن كل معرفة مهما كانت مرت بسياقات تطورية أنتقلت فيها من حالة دنيا إلى أخرى عليا وستواصل على نفس المنوال ، وعليه نستنتج ما يلي :

1- عدم إعتبار المعرفة حالة سكونية .

2- المعرفة لها سياقات تكوين تمر بها .

3- التحولات المعرفية هي التصحيح التطوري للمعرفة .

4- تتطلب المعرفة وجود ذات عاقلة وواعية وتحتاج بدورها إلى مراحل تكوين واكتساب .

يرى بياجي أن هناك أربعة مراحل رئيسية يحدث فيها تغيير واضح في السلوك المعرفي وهي: **المرحلة الحسية / الحركية** (من الولادة حتى السنة الثانية) ، **مرحلة ما قبل العمليات** (2 – 7 سنوات) ، **مرحلة العمليات المادية** (7 – 12 سنة) ، **مرحلة العمليات المجردة** (11 – 17سنة) .(أرجع إلى نظرية بياجيه المعرفية) .

ثانيا : مناهج الأبستمولوجيا التكوينية :

يرى بياجيه أن الإختلاف بين العلوم والفلسفة ينحصر في المناهج والطرائق المستعملة في البحث في المشكلات والمسائل ، فالعلم يحرص على تجزئة الموضوع وتفكيكه إلى وحدات ليدرسها في حين أن الفيلسوف يهتم بالربط بين وحدات وأجزاء الموضوع بحثا عن الكل العام أو المعرفة الكلية .

كانت الإبستمولوجيا التكوينية عند بياجي ترتكز على منهجين أساسيين في تحقيق فروضها واستنباط نتائجها وهما : المنهج التاريخي – النقدي والمنهج السيكو – تكويني ، فما هي مبادئ كل منهج ؟

أ - **المنهج التاريخي – النقدي** : يرى بياجي أن هذا المنهج يكون وصفيا – نقديا يقف على الوقائع والحوادث الماضية مع جهد ضروري يتمثل في تفسيرها والتعليق عليها قصد الكشف عن القوانين والسياقات الثابتة نسبيا التي تسلكها المعارف في مساراتها التطورية عبر الزمن والتاريخ . فالمنهج التاريخي – النقدي يدرس بروز ونمو ثم تطور مفهوم علمي ما أو مشكلة ما في تاريخ العلوم بغرض البحث عن المراحل والسياقات الأولى مرورا بمختلف الأطوار التي مرّ بها هذا المفهوم وصولا إلى الحالة الراهنة التي أصبح عليها المفهوم في أشكاله العليا المنتهية .

ب – **المنهج السيكو – التكويني**: يقوم المنهج السيكو – التكويني على أساس دراسة النمو الذهني عند الطفل في جميع مراحله للكشف عن التفكير العميق والحقيقي للطفل . وتوصل بياجي عن طريق هذا المنهج إلى أن الأطفال يختلفون إختلافا جذريا عن الكبار .

1- يفكر الأطفال بطريقة تختلف عن الطريقة التي يفكر بها الكبار .

2- ينظر الأطفال إلى العالم بطريقة تختلف عن طريقة الكبار .

3- للأطفال فلسفة تختلف عن فلسفة الكبار في معاملتهم .

واعتمد جون بياجي على المنهج السيكو ــ تكويني بالملاحظة و الفرضية والتجربة .

1-**الملاحظـــة** : يصادف الباحث مسألة ما تخص ميدان بحثه فيستوعبها في منظومته المعرفية السابقة فتتداعى في ذهنه إستنتاجات وأفكار يكوّن منها فرضيات تحلل المسألة التي سيدرسها .

2- **الفرضية** : يقوم الباحث بطرح فرضيات للمشكلة المدروسة ، والفرضية حل مؤقت فيتحقق منها البحث عن طريق التجريب .

3- **التجربة والإختبار** : يقوم الباحث بتجريب ما أفترضه على العينة للوصول إلى تحقيق الفرضية من عدمها .

لاحظ بياجي في سلوك الأطفال أنه إذا خيّر أحدهم بين كوب ووعاء كل واحد منهما به نفس الكمية من المشروب فإن الطفل يختار الوعاء لإعتقاده أنه يحمل كمية أكبر ويرفض الكوب لإعتقاده أنه يحمل أقل وكرر التجربة فأثار ذلك في نفسية بياجيه تساؤلا هل الأطفال لا يدركون مبدأ الإحتفاظ بالكمية؟ أفترض بياجيه أن فكر الصغار يختلف عن فكر الكبار وأنهم يحتاجون إلى وقت وتدريب كي تتطور لديهم مفاهيم الكمية والوزن والإحتفاظ ...

أستنتج بياجي أن الأطفال لا يملكون منذ البداية معرفة هذه المفاهيم ودلالاتها بل يكتسبونها وتنموا لديهم بالممارسة والنشاط المستمرين والتعامل مع موضوعات العالم الخارجي وهذا مما يدفع بالباحث أحيانا إلى دراسة العوامل الإجتماعية على الأطوار والمراحل المختلفة للنمو العقلي عند الطفل .

يرى بياجي أن الطفل يتطور معرفيا من خلال تفاعله مع البيئة وتحقيق التوازن ينتج عن إحدى العمليتين أو كليهما معاه هما التمثل (الإستيعاب) و التلاؤم لكن يبقى الطفل حتى أثناء تلقيه الموروث الإجتماعي يعمل على إستيعابه عن طريق ردّه إلى بنياته المعرفية السابقة وهنا تحدث عملتي **الإستيعاب** Assimilation والمواءمة Accommodation ومنه فالمرحلة الأولى تسمى الإستيعاب أي إستيعاب الجديد ورده إلى القديم ، أما المرحلة الثانية فتسمى التلاؤم أو المواءمة أي تلاؤم الذات مع خصوصيات الموضوع الجديد عن طريق تطوير خبراتها وبنياتها المعرفية السابقة ، وذلك بالضبط ما يحدث أثناء التفكير المجرد . فعندما تكون الذات أمام منبهات خارجية أو مواقف تتعامل معها إنطلاقا من رصيدها المخزن من الخبرات والتجارب والمعارف والمعلومات السابقة بمعنى أن الذات تبحث عن حل للمشكلة التي أمامها في ذاكرتها وذلك هو رد الجديد إلى القديم ، فإذا ما كان الموقف أو المشكل جديد فتضطر حينئذ إلى تعديل بنياتها وتجاربها المعرفية بما يتلاءم مع خصائصه ومميزاته . ومن هذا نستنتج أن الإستيعاب عملية متوقفة على قدرات الذات ومعارفها السابقة في حين التلاؤم عملية متوقفة على خصوصيات الموضوع وكيفياته وتصل الذات إلى التكيّف ومن ثمة إلى إقامة معرفة عن طريق إقامة توازن بين العمليتين .

فمثلا طرح على طالب يدرس بقسم العلوم سؤالا يطالب فيه المقارنة بين الخلية النباتية والخلية الحيوانية فيبدأ الطالب بعملية إستيعاب السؤال وتذكر خواص ومكونات وأجزاء كل منهما فهذه العملية تقوم أساسا على الذاكرة وما حفظته من معلومات عن الخليتين ولكنها لا تتضمن مقارنة بينهما لكن السؤال يتضمن خاصية جديدة يتوقف حلها على الذكاء ، فالذكاء هو الذي سيقوم بالمقارنة ... ومن ثمة فالعمل الذهني الذي قام به الطالب إنتقل أثناءه من المعلوم (المعارف المخزنة) وهذا هو الإستيعاب إلى كشف المجهول (كشف الموضوع الجديد) وهذا هو التلاءم أو المواءمة .

لقد أختلف الفلاسفة وعلماء المعرفة في تفسير الإشكالية المعرفية فنجد المدرسة التجريبية بزعامة جون لوك و دافيد هيوم يؤكدان على أن المعرفة مشتقة كلها من التجربة وأن العمليات العقلية المعقدة مثل التفكير المجرد مصدرها عمليات حسية تجريبية .

ثالثا : مشكلـة التوازي .

يرى بياجيه أن هناك تواز بين السياق المعرفي والسياق العضوي أو بين العمليات الذهنية والعمليات الحيوية والحاجة إلى المعرفة هي المبدأ الذي يحرك الذهن ويستثيره في مواجهة العالم الخارجي وهو إتصال معرفي تهدف من ورائه الذات العارفة إلى الإكتشاف والإطلاع .

الإستنتاج

نستنتج أن بحوث بياجيه في تكوينية المعرفة تحتم على الباحث النظر إليها من الجانب التطوري من حيث أنها سيرورة مستمرة في شكل حلزوني تنتقل من العملية البسيطة إلى ما أرقى وأعقد منها وهكذا وأن تمثل في ذاتها الحالة السابقة للمعرفة والأقل تعقيدا منها حاليا .

إن إهتمام بياجيه بالدراسة التكوينية للمعرفة والمعرفة العلمية كان لها صدى لدى المهتمين في هذا المجال لما لها من أبعاد وتأثيرات عميقة في مجالات مختلفة كالتربية والتعليم والنمو المعرفي مع إلزامية الاهتمام ومراعاة عمر المتمدرس في العملية التربوية والمعرفية مع تحديد المجال المعرفي للمادة المعطاة للمتمدرس .